موقع المعجزات من السنن

أرسل الله تعالى رسلاً لهداية البشر، زودهم بكتب ومعجزات كي تعينهم في مهمتهم، فإبراهيم عليه السلام يقوم بتحطيم الأصنام فيثور عليه قومه، ويشعلوا نارًا ويلقوه، فبحسب السنن ينبغي أن تلتهم النار إبراهيم؛ لأن جسمه قابل لذلك، لكن الله تعالى خالق الكون وسننه أوقفها إيقافًا مؤقتًا، كي تتحقق معجزة لنبيه إبراهيم، لكن السنة - كقانون عام - ستظل فاعلة حتى يوم القيامة، فالسنة قاعدة عامة، أما المعجزة فاستثناء، ومن قبل خالق السنن نفسه ﷻ..

أود أن أشير أن أثر المعجزة يكون على من شاهدها وليس على من سمع بها، أو قرأ عنها شيئًا (كخبر)؛ لذا فجدواها ليس بكثرة الحديث عنها، ولكن لمن عايشها ورآها ووقف عليها بنفسه.

كنائس مسيحية لا حديث لها إلا معجزات السيد المسيح، وحتى اليوم، الحديث تكرر ولا جديد فيه، وبعض المسلمين (كالصفويين) راح ينافس في اختراع معجزات لو عرضت على أطفال لرفضوها مثل: إن الإمام عليًا رضي الله عنه حول رجلًا منافقًا إلى (كلب)، ونفخ على رجل نفخة واحدة فتحول إلى امرأة، تزوجت وأنجبت عدة أولاد، واستمر حالها كذلك عدة سنوات ثم عادت رجلًا[1]...

(١) التشيع العلوي والتشيع الصفوي، د. علي شريعتي ص (٧٩).

هذا التخريف يتناسى أن هناك سننًا عامة لا يستطيع أحد خرقهـا أو تجاوزها أو تجاهلها، وأن ثمة عقولًا ترفض التخريف والتزييف والأساطير والمبالغات.

في كل الأديـان هنـاك مطلوبات مرغوب فيهـا ومكروهات مطلوب تجنبها والابتعاد عنها..

فالصدق مطلوب دينيًا والكذب منهي عنه، الأمانة مطلوبة والخيانة ممنوعـة، الوفاء بالعهود مطلـوب والنكث بها ممنوع، صلة الرحم مطلوبة وقطع الرحم ممنوع، العدل مطلوب والظلم ممنوع، الاستقامة مطلوبة والانحـراف ممنوع، الزواج مرغوب مطلوب والزنا محرم ممنوع.

وفي القـرآن الكـريم والسنـة نصوص تجلـو وتوضح هذه (السنة) الكونية، وتجعل منها قواعد للسلوك، من ذلك:

١- مـا ورد في سورة هود، والتي قـال عنها صاحب الرسالة ﷺ: «**شيبتني هود وأخواتها**»، إنها تذكر أممًا وحضارات ضربتها أمراض فدمرتها تدميرًا، من ذلك التلاعب بالموازين، ومنها قطع الطرق، ومنها فساد العلاقات الجنسية، والسورة تذكر كل مرض وما جره من عقوبة.

٢- ومـن أروع وأوضح هذه الصور، ما جاء عن رسولنا ﷺ، من أمراض تصيـب الأمة ومـا يترتب على ذلك مـن عقوبات:

يقول عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه وقال: «**يا معشر المهاجرين خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين التي لم تكن في أسلافهم، الذين مضوا، ولا نقص قوم المكيال إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤونة، وجور السلطان، ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر، وما لم تحكم أئمتهم بما أنزل الله في كتابه، إلا جعل الله بأسهم بينهم**»[1]..

كل مرض يقابله عقوبة تناسبه.

٣- بين الوحدة والقوة وبين الفرقة والفشل:

يقول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦).

٤- بين الظلم وهلاك الأمم ودمار الحضارة:

يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ (القصص: ٥٩).

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه: كتاب الفتن، باب العقوبات ٢/١٣٣.

٥- بين التجبر والتكبر والسقوط الحضاري:

يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ (الزخرف: ٥٥ – ٥٦).

٦- بين فساد المترفين والسقوط المدوي:

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ (الإسراء: ١٦).

وفي قراءة أخرى: (أمّرنا) أي جعلناهم أمراء، لكنهم فسقوا وابتعدوا عما أمر الله.

٧- بين اختلال موازين العدل والاعتدال والخراب الحضاري:

يقول تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف: ١٠٣ – ١٠٤).

٨- بين الطاعة والنصر والعصيان والفشل:

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (محمد: ٧ – ٨).

٩ - بين الاستقامة والتمكين:

يقول تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ﴾ (النور: ٥٥).

ويقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الأعراف: ٩٦).

١٠- بين الدعوة على بصيرة ومن دونها:

يقول تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٨).

١١- بين كفر النعمة والجوع والخوف:

يقول تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل: ١١٢).

السنن في (السنة)

١- تقليد المتأخر من تقدمه في الخير والشر..

يقول ﷺ: «**لتتبعن سنن من قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب خرب لسلكتموه**»، قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟**»[(١)].

٢- خمس بخمس..

يقول ﷺ: «**خمس بخمس: ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات، وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر**»[(٢)].

٣- لكل من دعاة الخير والشر نصيبهم..

يقول ﷺ: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل إثم من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٥٦) ومسلم (رقم ٢٦٦٩).
(٢) (رواه ابن ماجة والطبراني في المعجم الكبير عن ابن عباس). وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٢٤٠).
(٣) (أخرجه مسلم كتاب العلم باب من سن سنة حسنة الحديث (٢٦٧٤).

obeikandi.com

هذه نماذج معبرة ومثلها كثير.. والمسلم مطالب بمعرفتها وحسن التعامل، وإلا اصطدم معها، فعاد بالفشل والخسران في الدنيا والآخرة..

مع آية التوبة

جاء في سورة التوبة: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾.

من المعروف أن رسول الله ﷺ خرج من المدينة ومعه عشرة آلاف من الصحابة، فتح مكة وأسلم من أسلم، وجاءت الأنباء أن عدة قبائل تتجمع لقتال المسلمين على رأسها هوازن وثقيف وبنو سعد وبنو جشم وغيرهم، والغريب أنهم جاءوا بعوائلهم وما يملكون من حيوانات فخرج رسول الله بمن قدم من المدينة، وانضم لهم (ألفان) فصار عدد المقاتلين (١٢) ألف مقاتل، وهو أول جيش للمسلمين بهذا العدد، وسار الجيش باتجاه - وادي حنين - وكان مقاتلو العرب قد (كمنوا) في سفوح الجبال، ومع الفجر وصل الجيش الإسلامي يقوده رسول الله ﷺ، وفوجئوا بأعدائهم يباغتونهم منحدرين من السفوح، وفعلت المفاجأة فعلتها، فانكشف المسلمون تاركين رسول الله ﷺ وبعض الصحابة، فأمر رسول الله ﷺ عمه العباس لينادي بأعلى

صوتـه: إليَّ عباد الله، إليَّ.. أنا رسـول الله.. أنا النبي لا كذب، أنـا ابن عبدالمطلـب، وهكذا بدأ الصحابة يعـودون للمعركة من جديـد، ويلتفون حول رسـول الله، ويصرخون يـا لبيك، وانهزم المشركون، والمسلمون خلفهم يأسرون ويقتلون..

لقد بـدأت المعركة بهزيمـة المسلمين وانتهـت بنصر، وفي معركـة (أحد) جرى عكس ذلك، ابتـدأت المعركة بنصر ساحق للمسلمين وتحول إلى هزيمة ساحقة..

يقـول سيـد قطب عليه رحمـة الله[1]: لقـد كان نصر الله للمسلمـين في مواطـن كثـيرة قريبًـا مـن ذاكرتهـم، لا يحتـاج إلى أكـثر مـن إشارة، فأمـا وقعة (حنين) فكانـت بعد فتح مكة في (شهـر شـوال سنـة ثمان مـن الهجرة) وذلك لمـا فرغ ﷺ، وبلغـه أن (هـوازن) جمعوا له ليقاتلـوه، وأن أميرهم (مالك بن عوف النضري) ومعه ثقيف بكاملهـا.. قد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشـاه والنعم، فخرج إليهم رسول الله في جيشه وهم عشـرة آلاف من المهاجرين والأنصـار ومعهم الذين أسلموا من أهل مكـة (ألفان) فسار بهـم إلى (العـدوة) فالتقوا (بحنين) وكانت الوقعة في أول النهار في غلس الصبح، وقد كمنت هوازن، فلمـا توجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهـم قد بادروهم، وبادؤوهم

(١) في ظلال القرآن ص ١٦٤/٤، الطبعة السادسة (بتصرف قليل).

obeikandl.com

فولى المسلمون مدبريـن، وثبت رسول الله ﷺ ومعه قلة (قريب من مئة)... فجعلوا يعودون، ويصرخون يا لبيك، فأمرهم رسول الله بالحملة فانهزم المشركون... ا.هـ.

في وسـط المعركـة تعمل قوانين الحرب، فمـن كانت خطته أفضـل وأحكم ينتصر ولـو كان مشركًا، ومـن كانت خطته دون ذلك تلحقه الهزيمة ولو كان نبيًا مرسلًا..

فتح القسطنطينية

لقد بذل المسلمون جهودًا كبيرةً كي يفتحوا القسطنطينية، ولكـن جهودهم باءت بالفشـل حتى جاء محمـد الفاتح بخطط جديـدة وسلاح جديـد، حيـث تم صناعة مدافـع - لأول مرة - كبـيرة تضرب المدينة وأسوارها الحصينة، وكان هناك سلاسل حديـد تمنـع وصـول السفـن للمدينة فقـام الجيش العثماني برصـف أخشاب ووضع عليهـا الكثير من (الشحـوم) ثم جرى سحب السفن لتنزلق فـوق الأخشاب ولتقذف مجددًا في البحر، ولتفاجـئ المدينة بأسلحة جديـدة وأبراج خشبية عالية مع سفن تصـل إلى جدران المدينة مـع حماس لافتتاحهـا، وهكذا تغلبت الخطة الجيدة والجيش المتحمس، على حين فشلت العشرات من الحملات لأخذ القسطنطينية قبل ذلك.

obeikandl.com

مماليك مصر وهزيمة التتار

خرجت جيوش التتار من الصين وتوجهت غربًا تدك المدن وتسقط الدول الواحدة بعد الأخرى حتى سقطت بغداد، وقتل الخليفة العباسي ومعه سبعون من وجوه الدولة.

واستمر هذا الزاحف بقوته وعنفوانه حتى وصل مصر، ليجد أمامه المماليك وهم (عسكر محترف) فدرس أسباب انتصار التتار وهزيمة كل من قاتلهم، فحددوا الأسباب على الوجه الآتي:

يملك التتار جيشًا قويًّا مع خيالة كثيرة العدد، وعند بداية المعركة تهجم (الخيالة) لتلحق الهزيمة بالعدو.

وقرر المماليك: يجب إجبار الخيالة على الحرب دون خيلهم، وأعدوا خطة محكمة تنفر الخيل وتدفع بها للهرب، فيقاتل الخيالة دون وجود الخيل، وهكذا عندما التقى الجيشان راح جيش المماليك يكبر ويضرب الطبول بقوة، وكذلك الأبواق والصناجات، والخيل تمتاز بقوة السمع والبصر فجالت الخيل وألقت الخيالة عن ظهورها، وفتح لها فتحات في الجيش كي تنطلق بعيدًا عن أرض المعركة، وهكذا لحقت بالتتار أكبر هزيمة بفضل خطة عسكرية جيدة، حددت أسباب قوة العدو، وكيف يجري التعامل مع هذه القوة، فلحقت الهزيمة، وربما

بأقل الخسائر للجيش المصري، والفضل للخطة البارعة، وحسن إدارة المعركة، وهذا يصدق على معاركنا مع إسرائيل وغيرها..

وأخيرًا هناك أكذوبة روجت - وما تزال - لجيش لم تلحق به هزيمة، فالجيش ومثله كل صراع، ينتصر الأفضل خطة وأداءً، وينهزم من لا خطة له، أو يمتلك الخطة لكنها دون خطط الخصم، وكل ذلك مع قطع النظر عن الحق والباطل، فالحق ينتصر بفضل أهله وحسن الأداء، وينهزم حين يسوء الأداء، أو لا يحسن عقد التحالفات أو لا يحسن إدارة الصراع، أو يعجز عن توفير متطلباته، فمن أين يتأتى النصر؟ وكيف يستقيم الظل والعود أعوج؟